حديث الوادى

اغراء . . .

يظهر ان شعبنا المصرى يحب الوزارة حباً جماً ، ويؤمن بها ايماناً لا حد له ، ويمنحها ثقة لم يمنحها وزارة من قبل ، ويوليها اطمئناناً لم يوله أحداً من قبل . فاذا قالت له الوزارة افعل لم يتردد فى الطاعة والاذعان ، واذا قالت له الوزارة لا تفعل لم يتردد في الامتناع والانتهاء ، بل هو يمضى فى حب الوزارة والاعجاب بها ، والايمان لها ، إلى أبعد من هذا الحد . الى حد لم تكن الوزارة تنتظره ولا ترجوه ، إلى حد لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر ، فهو يتحسس نية الوزارة ويتبين مع الجهد والمشقة ما ستريده فى المستقبل القريب أو البعيد ، تنفيذ إرادتها ، وما ستأباه فى المستقبل القريب أو البعيد ليسبق إلى الامتناع والانتهاء ، فيريحها بذلك من مشقة الأمر والنهى ، ويحط عنها ثقل العمل وأعباء التبعة ، ويتيح لها أن تستريح . لا تأتى من الأمر إلا أن تفكر فيما تحب ، فاذا الشعب يحبه معها بل يسبقها الى الحب ، وفيما تكره فاذا الشعب يكرهه معها ، بل يسبقها الى الكره . وهذا فيما نعتقد اعظم ما يمكن ان تبلغه الوزارات من ثقة الشعوب وتأييدها ومن رضى الشعوب وايمانها وما نعلم ان وزارة ظفرت بمثل هذا الحب من الشعب منذ وجدت الوزارات ومنذ عرفها التاريخ . وما نظن ان وزارة ستظفر بمثل هذا الحب ، فى بلد من البلاد ، حتى يرث الله الارض ومن عليها ، ومصدر هذا الحب الرائع ، الذى لا نظير له فيما كان ، ولا فيما هو كائن ولا فيما سيكون ، هو فى أكبر الظن ان وزراءنا جميعاً رجال طيبون ، لا تضمر قلوبهم للشعب إلا حباً ونصحاً ، ومودة واخلاصاً . ولا يقصدون حين يقدمون على شئ أو يحجمون عن شئ الا الى تحقيق ارادة الشعب كاملة ، ورفع رأس الشعب عالياً ، وحفظ كرامة الشعب موفورة . عرف الشعب منهم ذلك مرة ، ومرة ، ومرة آمن لهم ، واطمأن اليهم ، والقى اليهم القيادة وقال لهم سيروا بى حيث شئتم ، فأنا لكم تابع ، وافعلوا بى ما شئتم فأنا لكم مذعن ، ومرونى بما شئتم فانا لكم سامع مطيع .

ولعلك من الذين يجحدون البديهيات ، ويشكون فى الأوليات ولا يؤمنون بماآمن به الناس جميعاً ، ولا يصدقون بأن الشمس طالعة ، وان كان ضوؤها يبهر الأبصار ، وان كان حرها يصهر الاجسام وانما تلتمس الدليل ، فيما لا يحتاج الى الدليل ، وتسأل عن الحجة فيما لا يفتقر الى حجة . لعلك من هؤلاء الوفديين الذين لا يزالون يظنون ان الشعب

لا يحب الوزارة ، ولا يطمئن اليها ، ولا يستجيب لها اذا دعت ، ولا يسمع لها اذا قالت فاذا كنت من هؤلاء فقد تستطيع ان تسمع لهذا النبأ العجيب ، وان تتعظ به ، وان تقنع نفسك بأن أيام الوفديين قد انقضت ، وبأن نجمهم قد أفل وبأن ليس لهم فى البقاء السياسى أى مطمع .

زعم رئيس الوفد وأصحابه أعضاء الوفد ، أن من حقهم أن يدعوا الى مؤتمر وطنى ، يعقدونه فى الشهر المقبل ، وأعلنوا رأيهم هذا ، فلم يحفل بهم أحد ، ولم يلتفت اليهم أحد ، ولم يتقدم أحد للإشتراك فى هذا المؤتمر الذى يريدون أن يدعوا اليه ، إلا نفر قليل جداً لا يبلغون أصابع اليدين ، فهم عشرة آلاف ، او هم كانوا عشرة آلاف منذ أسبوع ، ولو كان الوفد مسموع الكلمة الآن كما كان مسموع الكلمة من قبل ، لأسرع الناس إلى مؤتمره إسراعاً ، ولما انتهى المستجيبون لدعوته ، إلى هذا العدد اليسير ، الضئيل ، الذى لا يغنى شيئاً ، ولا يدل على شئ ، والذى لا يحصى بالعشرات ، ولا يحصى بالمئات ، وانما يحصى بالألوف . ومصدر هذا الاعراض عن الوفد ، والتنكر له ، ان الشعب قد علم بأن الوزارة لا تحب الوفد ، فمحا حب الوفد من قلبه محواً ، وان الشعب قد سمع بأن الوزارة لا تجب المؤتمر الذى يدعو اليه الوفد . فزهد فى هذا المؤتمر زهداً ، ولم يرسل اليه إلا عشرة آلاف .

ولعل هذا الدليل لا يقنعك ، فاليك دليلا آخر ، أبلغ منه فى الدلالة و

أقدر منه على الإقناع . فقد نشرت صحف وزارية ان الوزارة تفكر فى ان تمنع اجتماع المؤتمر بغضاً له ، وإشفاقاً منه ، على الأمن طبعاً ، فلم يكد الشعب يتبين رأى الوزارة هذا ، ويسمع بأن الوزارة قد تريد منع اجتماع المؤتمر ، حتى سبق إلى تحقيق ارادتها ، والاستجابة لدعائها فزاد إعراضه عن المؤتمر ، واشتد قعوده عنه ، وتلقى سكرتير الوفد فى يوم واحد ألفى طلب للانضمام إلى المؤتمر والاشتراك فيه . نعم تلقى ألفى طلب فى يوم واحد ، بعد أن أشيع وأذيع ان الوزارة لن تسمح بانعقاد المؤتمر . فأى دليل على اخفاق الوفد ، أوضح من هذا الدليل ، وأى حجة على فوز الوزارة أنصع من هذه الحجة ؟ لو كان الوفد منتصراً فى هذه الأيام كما كان منتصراً من قبل ، لتلقى سكرتيره فى يوم واحد طلبين اثنين أو عشرين طلباً ، أو مئتى طلب ، ولكن الوفد منهزم ممعن فى الانهزام ، فلا تكاد الاشاعات تنبئ الناس بكره الوزارة لمؤتمر الوفد حتى يبطئ الناس عن هذا المؤتمر فلا يتقدم اليه فى اليوم الواحد اثنان ، ولا عشرون ولامئتان وانما يتقدم اليه ألفان . . .

وستمضى الاشاعة فى الترويج لبغض الوزارة للمؤتمر وسيمضى الناس فى السبق الى تحقيق ارادة الوزارة وفى القعود عن المؤتمر ، وسيتلقى الاستاذ الكبير مكرم عبيد سكرتير الوفد فى كل يوم طلبات لا تعد بالأحاد ولا بالعشرات ولا بالمئات ، وانما تعد بالألوف ، وسيحار الوفد في أمر هؤلاء المشتركين ، أين يجمعهم وكيف يجد المكان الذى يحتويهم ، وسيؤمن رئيس الوفد آخر الأمر بما لا بد له من الايمان به وهو ان الشعب قد زهد فيه ، وتفرق من حوله ورغب في رئيس الوزراء ، والتف حوله ، وأصبحت زعامة رئيس الوفد ، حديثاً من الأحاديث ونبأ من الانباء ، وأصبحت زعامة رئيس الوزراء الرجل الطيب حقيقة واقعة لا تقبل شكا ولا مراء يؤمن بها الانجليز ، قبل أن يؤمن بها المصريون .

أتريد دليلا آخر على انهزام الوفد ، وانقضاء زعامة النحاس ؟ لقد اعترف النحاس نفسه بهذا الدليل ، وسجل الهزيمة على نفسه تسجيلا ، فأنبأنا بأنه كان فى كازينو سان ستفانو ذات يوم ، وكان رئيس الوزراء أيضاً فى الكازينو ، وكان الناس يحتفلون بعيد من أعياد الخير ، فنظر النحاس ونظر الناس فاذا الشعب حول النحاس ، لأنه يبغضه أشد البغض ، ويرفض زعامته كل الرفض . . . وإذا الشرطة ، والشرطة وحدها ، حول رئيس الوزراء ، لأن رئيس الوزراء هو الزعيم الأوحد ، وهو الرئيس الجليل !!

فلما كان الغد كان النحاس فى الكازينو ، وكان الشعب يحتفل بهذا العيد نفسه ، وهم الشعب أن يلتف حول النحاس ليظهر له البغض ، وليعلن اليه انه قد رفض زعامته رفضاً ، ولكن وزارة الرجل الطيب ، كانت طيبة مثله ، فرحمت النحاس من هذا الخذلان ، وأشفقت عليه من بغض الشعب ، وفرقت الناس من حوله تفريقاً .

ما أشد حاجة جماعة من المصريين إلى مقدار يسير من الحياء وإلى شعور يسير بما يحسن أن يقال وما لا يحسن أن يقال .

ألست ترى معى أن الوزارة اذا أمرت بشئ كان أمرها صداً للناس عنه ، وإذا نهت عن شئ كان نهيها إغراء للناس به ؟ ألست ترى معى ان ما أذيع من مكر الوزارة للمؤتمر قد أغرى الناس بهذا المؤتمر اغراء ، ودفع الناس إلى الاشتراك فيه دفعاً ؟ فكيف إذا أعلنت الوزارة حربها الشعواء على هذا المؤتمر ؟

ان أحسن حرب تستطيع الوزارة ان تعلنها على خصومها وعلى الوفد خاصة بين خصومها هى الا تحار بهم ولا تكيد لهم ، ولا تظهر لهم بغضاً فان الناس قد عاهدوا انفسهم وقلوبهم وضمائرهم ان يمضوا الى اليمين اذا مضى الرجل الطيب ووزارته الى الشمال وان يمضوا الى الشمال ، اذا مضى الرجل الطيب ووزارته الى اليمين . . .

طه حسين

(★) الوادى ، ٩/٢٦/ ١٩٣٤ .